مستقبل حركة فتح

بروفيسور عبد الستار قاسم

التساؤل حول مستقبل حركة فتح مطروح بقوة بعد غياب ياسر عرفات، وازداد ضغطا بعد فوز حركة حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية. هل ستبقى حركة فتح متماسكة وقادرة على المضي في محاولات البحث عن الذات وإعادة ترتيب الصفوف، والعودة مجددا بقوة وتوحد إلى المسرح القيادي الفلسطيني؟ هل هناك مقومات لنجاح هذه المحاولات، أم أن لحظة الحقيقة قد تجلت فأنهكت الحركة؟ أم أن العوامل التاريخية والكامنة تلعب دورا في إحداث التجديد المطلوب في هيكلية الحركة وفكرها مما سيعيدها إلى سابق عهدها؟

هناك عوامل عديدة تتدخل في تحديد الإجابة وتوضيحها، وتنقسم إلى ذاتية وخارجية وموضوعية. فيما يلي نقاش مختصر لكل منها:

أولا: العوامل الذاتية وتنقسم إلى قسمين:

1- عوامل بنائية تساعد على إعادة اللحمة لحركة فتح مما يؤهلها للعودة بقوة إلى ميدان اتخاذ القرار، وهي تتلخص فيما يلي:

أ- وجود قيادات فتحوية ذات تجربة وخبرة ومعرفة، ولديها الرغبة في إعادة بناء الحركة. هذه قيادات موجودة في مختلف مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي مختلف فئات الحركة الاجتماعية والمهنية والثقافية. هذه قيادات غيورة ويحزنها أن ترى تاريخها وماضيها يتناثر ويتلاشى، وهي وفية لمواقفها وتجاربها النضالية في مواجهة الاحتلال. إنها قيادات ذات التزام وطني عال، وقضت سنين في المعتقلات الصهيونية أو في ميدان المعركة في جنوب لبنان، وتدفع باتجاه التغيير داخل الحركة خاصة على المستوى القيادي.

ب- هناك عناصر وكوادر فتحوية متحمسة لفكرة التجديد ورص الصفوف والنهوض بالحركة. هؤلاء هم الذين حملوا الحركة ميدانيا سواء على صعيد مواجهة الاحتلال، أو على صعيد تأييد الاتفاقيات مع إسرائيل على اعتبار أنها وسيلة سلمية لاستعادة الحقوق الفلسطينية. وقد ساهم هؤلاء بقوة في حشد التأييد الشعبي للحركة، وما يزالون يقومون بهذا الدور.

ت- قيادات الفساد معنية أيضا باستعادة قوة فتح ومكانتها لأنهم هم كبار الخاسرين إذا تنحت الحركة جانبا. من المعروف أن الغالبية الساحقة من قيادات الفساد تنتسب إلى حركة فتح، وهؤلاء هم الذين ساهموا مباشرة بخسارة حركة فتح أمام حماس. عاش هؤلاء حياة رغد وبغددة تميزت بوفرة الأموال والسلطان ورضا أمريكا والاحتلال، وليس من السهل عليهم أن يروا أنفسهم وقد ألقي بهم على الرصيف. إنهم سيعملون بقوة نحو العودة إلى المسرح لكن ليس من خلال بناء الحركة وإنما من خلال إفشال حركة حماس.

ث- استفاد الغالبية الساحقة من أعضاء حركة فتح شخصيا من عهد السلطة الفلسطينية بقيادة حركتهم فحصلوا على الوظائف والامتيازات المختلفة مثل السيارات العامة وأجهزة الخلوي (النقال) وبطاقات الاتصال، ووقود السيارات المجاني، الخ. يشعر هؤلاء الآن أن امتيازاتهم مهددة، وأن تلك الحظوة على وشك أن تتبدد، وهم مستعدون للمشاركة في الجهود نحو عودة الحركة إلى تولي إدارة الضفة وغزة.

2- عوامل هدم تعمل من داخل الحركة ضد الحركة وتعرقل مسيرتها نحو استعادة عافيتها، وهي تتلخص فيما يلي:

أ- فتح مليئة بالقيادات ومراكز القوى المتصارعة على الزعامة، وكل منها يحفر للآخر بطرق تآمرية واستقطابية ترفع من حدة التنافس الإسقاطي. (ما أعنيه هو أن الشخص يحاول أن يكون قائدا ليس بإنجازاته وإنما من خلال الحط من الآخرين) يظهر للمراقب أن فتح عبارة عن عدة حركات مثل حركة أبو فلان وحركة أبو علان، وكل منها تدعي الشرعية والالتزام بخطى عرفات.

ب- فضلا عن الفوضى التنظيمية، تعاني فتح من فوضى السلاح والذي أفرز ظاهرة تعرف الآن بالفلتان الأمني. ينتمي الغالبية الساحقة من المسلحين الذين يجوبون الشوارع يهددون أمن الناس ويعتدون عليهم وعلى ممتلكاتهم إلى حركة فتح، وهم يسيئون للحركة وما زالوا يشكلون مصدرا للإساءة لها.

ت- هناك صعوبات كبيرة أمام الحركة لعقد مؤتمرها العام بسبب التفسخ الذي تعاني منه. من المطلوب عقد هذا المؤتمر من أجل تجديد الشباب، لكن هناك خشية من أن تكون الحركة كوعاء زجاج مهشم غير منفرط، سرعان ما يتهاوى إذا حركته من مكانه. ستحصل مشادات صعبة بين القيادات الحالية للحركة بسبب التنافس الإسقاطي، وستحصل مشادات بين الشيب والشباب، وبين الصالحين والفاسدين.

ث- حتى لو اجتمعت الحركة، على ماذا ستتفق؟ هذا يحتاج إلى تحضير لا شك أنه سيكون طويلا وشاقا. تفتقر الحركة الآن إلى ميثاق أو خطة عمل، ولا توجد أي بوصلة نظرية تهتدي بها عدا اتفاقيات أوسلو التي هدمت تطبيقاتها آمال الكثير من الفتحويين. ماذا تريد فتح؟ تحرير فلسطين أم إقامة دولة على الضفة والقطاع؟ وماذا بقي من الضفة حتى تُقام الدولة؟ وأي دولة هي تلك التي ستقوم؟ هل ستكون مجرد كيان يعتاش من أهل الغرب ويقوم بأعمال الحراسة على إسرائيل؟

ج- تعاني حركة فتح من قيادات معروفة على الساحة الفلسطينية بأنها فاسدة. إذا أرادت الحركة النجاح فلا بد من التخلص من هذه العناصر والتي يسود انطباع حولها بأنها قريبة من إسرائيل. ربما تؤدي محاولات التخلص إلى صراع داخلي عنيف.

المحصلة هي أن العوامل الداخلية تعمل إجمالا ضد إعادة بناء الحركة.

ثانيا: العوامل الخارجية والتي تعني وجود قوى أو جهات خارجية تدفع إما باتجاه إعادة بناء الحركة أو تخريبها بالمزيد، وألخصها بالتالي:

1- إسرائيل وأمريكا مهتمتان الآن باستعادة الحركة لعنفوانها وطاقاتها، إنما ليس كحركة مناضلة. تهتم الدولتان بتشجيع البديل لحركة حماس، لكن ليس حركة فتح التي تقوم بعمليات عسكرية، أو التي تنزع إلى تاريخها النضالي، وإنما تلك التي يقودها أناس موالون لأمريكا وأصدقاء لإسرائيل. أي أن الدولتين مهتمتان باستخدام إعادة بناء حركة فتح من أجل إكمال مشروع الحكم الذاتي الفلسطيني، وليس من أجل إعادة اللحمة إلى صفوف الشعب الفلسطيني. ولهذا نشطت الدولتان في جذب عدد من القيادات الفتحوية إلى عملية تنسيق من أجل إفشال حماس. تم الإعلان عن اجتماعات تم عقدها بين مسؤولين

أمريكيين وبعض الفلسطينيين في أمريكا؛ ويلاحظ أن فلسطينيين يغدقون أموالا على الساحة الفلسطينية دون الإفصاح عن مصادرهم المالية.

2- الضغط على حماس من قبل الخارج يشكل بحد ذاته أملا في عودة حركة فتح إلى الصدارة. هناك حصار مالي ودبلوماسي مضروب على حماس من أجل إفشالها داخليا، ومن ثم إسقاطها. أمريكا وأوروبا تمنعان الأموال عن الحكومة الفلسطينية الحالية على أمل خلق حالة شعبية تتسم بالتمرد، علما ن أغلب الموظفين الذين تسعى حماس إلى تحصيل أموال لدفع رواتبهم هم من فتح ومن اليسير أن يتجاوبوا مع الضغط الخارجي. بعض الدول العربية شريكة في هذا المشروع، وترى أن غياب فتح قد جنح كثيرا بمركب المسيرة التفاوضية.

3- هناك جهات خارجية تحاول دعم الحكومة الفلسطينية الحالية مما يعزز بقاءها والتأثير بصورة غير مباشرة على قدرة فتح للعودة إلى الصدارة. سوريا مثلا قدمت عددا من التسهيلات للفلسطينيين، وقررت استقبال الفلسطينيين التائهين على الحدود الافتراضية بين الأردن والعراق، وكذلك فتح باب التبرعات الشعبية لدعم الشعب الفلسطيني. أما إيران فقد قررت تقديم معونة مالية كبيرة لم يلمس الشارع الفلسطيني آثارها بعد.

4- التركيز على منظمة التحرير الفلسطينية يخدم حركة فتح على حساب حركة حماس. إذا قرر محمود عباس بالتعاون مع الأمريكيين والأوروبيين التفاوض عبر منظمة التحرير فإنه سيزيح حماس جانبا على الصعيد الدولي، وهذا قد يصب في مصلحة فتح التي ستجد قيادات صاحبة قرار في عدد من الشؤون الدولية. يشكل هذا مصدر خطر على العلاقات الداخلية الفلسطينية، لكن هذا لا يشكل محورا أساسيا في تفكير القوى الخارجية.

المحصلة هي أن العوامل الخارجية تعمل إجمالا لصالح إعادة بناء حركة فتح.

ثالثا: العوامل الموضوعية والتي من الصعب جدا للعوامل الخارجية والداخلية أن تتغلب عليها، أو أن تبتعد عن تأثيرها، وألخصها فيما يلي:

1- عملت قيادة حركة فتح ضد المنطق التاريخي في اعترافها بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها. ليس من السهل أن يمر مشروع سلام مع إسرائيل وهي تحتل مقدسات إسلامية وأرضا عربية وتشرد الملايين. المشكلة هنا هي أن دولة صغيرة على مساحة بسيطة تأتي بأمة عظيمة مترامية الأطراف لتستجدي العطف والرحمة. هذا منطق يصلح في لحظة تاريخية معينة، لكنه لا يصلح تاريخيا. ولهذا لن تصمد اتفاقيات الصلح التي أقامتها إسرائيل مع الأردن ومصر، ولم يكن من المتوقع أن يصمد اتفاق أوسلو.

2- حركة فتح ليست تنظيما بالمعنى الدقيق، وهي أشبه ما تكون بشركة مساهمة تجمعها المصالح الشخصية وليس الأبعاد الوطنية. تعاني حركة فتح من التراث السابق الذي اعتمد على شراء الذمم واستقطاب الولاء بالمال واستبعاد أصحاب الرأي الذين يمكن أن يؤثروا بسير الحركة. هناك وطنيون في الحركة ومخلصون، لكن الحركة ككل تنزع نحو المصالح والأبعاد الشخصية. فكيف لمثل هذه حركة أن تلتئم وتستمر في وحدتها. هذا العامل الموضوعي يتأثر بالأموال التي يمكن أن توفرها الدول الغربية وبعض الدول العربية لقيادات فتحوية مفضلة علهم يعيدون بناء الحركة بالطريقة التي تتوافق مع رغبات أمريكا وإسرائيل.

3- تشهد المنطقة العربية الإسلامية إعادة ترتيب لموازين القوى والذي لا مفر سيلقي بظلاله على التنظيمات الفلسطينية. إسرائيل لا تستطيع أن تصول وتجول في المنطقة كيفما تشاء بسبب ثبات بعض التنظيمات اللبنانية والفلسطينية، وظهور إيران كمنازع للسطوة الإسرائيلية. وأمريكا لا تستطيع أيضا أن تأمر فتطاع بسبب تورط جنودها في أفغانستان والعراق، وتحدي إيران النووي. هناك اصطفاف جديد في المنطقة يتبلور، وإذا عادت حركة فتح إلى الصدارة فإن القضية الفلسطينية ستخرج من بين أيدي الفلسطينيين لصالح البعد الإقليمي.

4- يعيش الشعب الفلسطيني وضعا شاذا من ناحية الاعتماد في لقمة خبزه على من لا يتفقون معه، أو من هم أصدقاء لإسرائيل. اكتشف الشعب الفلسطيني أخيرا بأن الغرب يتحكم بلقمة خبزه، الأمر الذي بدأ يفرز وعيا بضرورة الاعتماد على الذات وعلى الأصدقاء من العرب والمسلمين. هذا أمر له وقعه لدى المثقفين والمفكرين الفلسطينيين الذين يحملون حركة فتح مسؤوليته. صحيح أن الكثير من العامة يفكرون بالرواتب، لكن الاستراتيجي يفكر بتحرير لقمة الخبز.

المحصلة هي أن العوامل الموضوعية تعمل إجمالا ضد إعادة بناء حركة فتح.

الخلاصة

تقديري أن مسألة عودة حركة فتح إلى الصدارة مرتبط بالأموال الغربية، لكن عملية إعادة البناء تبقى صعبة جدا. من المحتمل أن تتوفر أموال تعيد للحركة إدارتها لشؤون الناس في الضفة وغزة، لكن هذا لن يجعل الحركة في مأمن من الانهيار. المشكلة الكبيرة أمام إعادة البناء تكمن في القيادات الفاسدة والقريبة من إسرائيل وأمريكا والتي تتحمل مسؤولية كبيرة في إفشال حركة فتح، لكن هذه هي القيادات التي تعوّل عليها أمريكا وإسرائيل. أمريكا ليست مستعدة لتوجيه أموالها إلى قيادات نظيفة لأن مثلها ليست مستعدة للتساوق مع المتطلبات الأمريكية والإسرائيلية.

لا ينفع أمريكا والغرب عموما غير الفاسدين، ولا ينفع إعادة بناء الحركة غير المخلصين. ولهذا ستبقى فتح في وضع صعب وسيبقى مستقبلها مرشحا لمزيد من التدهور. ربما ستنتعش الحركة في المرحلة القادمة على إفشال حماس، لكن هذا لا يشكل طريقا للنجاح.